مقدمة

سيُسجَّل القرن العشرين الفائت كقرنٍ تفشّى فيه وباء العنصريّة بأوسع شكل في تاريخ البشرية. لم ينتشر هذا الوباء في المناطق المُستضعفة من الحاضرة الإنسانية, وإنما في قلب أوروبا القارة الأكثر تنوّراً على وجه الأرض, ثم أضحى له صدى وفروع في الدول النامية. في تلك الفترة من الزمن, حدث عامل مُخجل يتمثّل في العدد الهائل من المثقفين والعلماء والمؤرخين الذين تجنّدوا في سبيل نشره.

كنا, نحن اليهود والعرب أبناء الشعوب السامية, على مدار التاريخ أحد الأهداف المركزية التي تمّ توجيه سهام هذا الوباء إليها. لقد هالني أن أكتشف, وأنا فتى في بغداد, أنه حتى دول ديمقراطية وليبرالية ظاهريا صمتت صمتَ القبورِ حيالَ العنصريّة. ويخيّل لي أنه استحوذت الكراهية العنصريّة من ناحية ثقافية على تلك الحقبة من أقاصي الأرض إلى أقاصيها. واستحوذ جدل قوامه التصنيف على أساس العرق والأصل ولون البشرة والتقاليد على العقل البشري دون أي عائق.

ثمة عامل مُخجل آخر في هذا الوباء العنصري تجسّد في ضحايا التصنيف العرقي النازي بالذات, كالعرب واليهود مثلاً, الذين أرادوا اعتماد نظرية العرق كسياسة الواحد تجاه الآخر. من الصعب أن نفهم كيف أن ضحايا العنصريّة يُمكن أن يكونوا عنصريين بأنفسهم. أذكر أني كنت في طريقي إلى المدرسة في بغداد عندما صادفت كتابات جرافيتي على الجدران فحواها: "هتلر يُبيد الحشرات". كم كان مؤلماً أن أكتشف أن أيدي عدد من العرب التي جاء عنها في كتاب "كفاحي" لهتلر أنها أيدي أناس هم دون البشر, هي التي كتبت هذا الشعار. أي, أن العرب الذين كتبوا الشعار تبنوا بأنفسهم هذه النظرية المقيتة.

اكتشفت لاحقاً أن عدداً من آباء الصهيونية كانوا ملوّثين بهذا الوباء إلى حدّ النُخاع. وقد سُمّي على اسم أحدهم شارع عزيز عليّ في حيفا, ربط بين بيتي على الكرمل وبيتي السابق في وادي النسناس. والمقصود هنا, أرثور روبين الذي كان من المروجين لنظرية "طهارة العرق". وقد شكّك روبين بانتماء اليهود الشرقيين إلى "العرق اليهودي", واعتقد أن اليهود من أصل يمني ليسوا يهوداً لأنه, وفق حُكمه, لا وجود ليهود سُمر البشرة. وكان قد طالب في تلك الأيام الظلامية بحظر الزواج بين الأِشكناز وبين اليهود من أصل يمني.

لقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية الدولة العُظمى الغربية الأخيرة التي حظرت التجارة بالعبيد, وواصلت اعتماد سياسة عنصرية تجاه السود حتى بعد هزيمة ألمانيا النازية. فقط في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي, وبفضل نضالات بطولية, تم منح السود حق السفر في الحافلات مع البيض, والتعلّم معهم في المدارس ذاتها. فكيف حصل بعد نصف قرن أن انتخبت الدولة التي تجرّ في عقبها كل هذه المسوخ العنصريّة رئيساً أسود؟

ما زلت أذكر الشخصيات ذات البشره السوداء التي عرضتها السينما في الولايات المتحدة في الخمسينيات المتأخرة. كانت النساء منهن خدّامات وبدينات هائلات الكِبَر دائما, وعلى وجوههن ترتسم نظرة بلهاء. أما بالنسبة للرجال, فقد شغل هؤلاء أدوار ماسحي أحذية وعمال زراعة أُمِّيين . لعلّ الأمر الأكيد أن باراك أوباما لم يُنتخب رئيساً للولايات المتحدة بين عشية وضحاها, وإنما سبق ذلك انقلاب في الوعي الأميركي العام. لقد حدث ذلك في استوديوهات السينما التي كانت عنصرية جداً. أتذكّر فيلماً قديماً ولامّعاً بعنوان: "الرجل الذي أتى للعشاء". في أحد مشاهد الفيلم, تُخبر الابنة أباها الأبيض الليبرالي أنها دعت حبيب قلبها إلى وجبة عائلية. كاد والدها يُصاب بسكتة قلبية عندما اكتشف في الباب بذلة فاخرة طالع منها شابٌ أسود. نشأ على الفور توتّر غير معلن, لكنه موجع بين الابنة المتيّمة وبين أبيها الليبرالي المصدوم. عندها, توجّه الأب المضيف المثقف إلى الضيف العاقل طالباً أن يخلّصه من الورطة, فقد توقّع منه أن يفهم بنفسه أن الزواج المختلط في أمريكا العنصريّة هو بمثابة كارثة لهما. أجابه الشاب الأسود بما معناه: إذا كنتَ أنت الليبرالي والإنساني سترفض قبولي كعريس لابنتك, سأحترم إرادتك. فردّ الأب على الضيف بانفعال وعصبية ظاهرين. عملياً, أجبره الضيف على أن يخوض المواجهة بين مشاعره الدفينة وبين وعظه الإنساني. كانت المكانة الاجتماعية لهذا الأب مهمة جداً بالنسبة إليه, إلا إنه اضطر مرغما في نهاية المطاف إلى مباركة زواج ابنته من الشاب الأسود.

إذن, شكّلت الفنون والثقافة في الولايات المتحدة رأس حربة في موجة أفضت إلى التغيير في الوعي العام, وإلى انتخاب شخص أسود للمنصب الأعلى في العالم بأسره. وتغيّرت تدريجيا أدوار الشخصيات السوداء البشرة في السينما الأمريكية من خلال استبدالها بشخصيات ناجحة في المجتمع, ومن مجالات مختلفة: قُضاة محترمون, علماء رائدون, محاضرون في الفلسفة, قادة عسكريون مشهورون, مثقفون وأدباء لامعون. كما أن حقول

الأدب والموسيقى والغناء والمسرح جارَت السينما الأمريكية في هذا الباب. أوباما مدين إذن بالكثير لعالم الثقافة الذي خلق صورة جديدة للإنسان الأسود.

هل حدث تغييركهذا في الثقافة الإسرائيلية منذ أن راجت أفكار روبين وزملائه الذين وصفوا اليهودي الشرقي بأنه حسود ويركض وراء المال من خلال شخصية صالح شباتي المنفّر, وصولاً إلى الصورة الأدبية لهذا التوجّه التي تجسدت في شخصية العربي واليهودي الشرقي في الأدب العبري؟ إن للتصريحات التنميطية التي يُطلقها مصممو الرأي العام أثرها الهام في تجذير العنصريّة. صرّح أحد الصحافيين قبل مُدة على الملأ أن الموسيقى الشرقية, بوصفها كذلك, هي موسيقى عنيفة. وقد غاب عنه أن فرقة "الأحجار المتدحرجة" أبصرت النور في بريطانيا المتنورة, وأن طبول القيامة في موسيقى Hard rock نمت في الولايات المتحدة الأمريكية واستحوذت على العالم الغربي كعاصفة. منذ متى كانت الدموع والموسيقى المليئة بالأسى عنصراً عنيفاً؟

توجد في إسرائيل وفي الولايات المتحدة منذ بداياتهما عنصرية وفجوات اجتماعية عميقة. وقد لوّحت الولايات المتحدة براية الدستور الذي يضمن المساواة للجميع, وتباهت إسرائيل بوثيقة الاستقلال القائلة بالمساواة. لكن هذه وتلك أخطأتا فيما يتعلق بالمساواة وحقوق الإنسان. ومن المؤسف أن نُشيركذلك إلى أنه في إسرائيل حدثت سيرورة مغايرة لما حدث في الولايات المتحدة. في إسرائيل, لا نزال نرى ان هنالك تمثيل متدنٍ بارز لمواطنين إسرائيليين مختلفين في الصروح الثقافية وفي مواقع السلطة والحكم: في القيادات الحزبية والسياسية, في الكنيست, في السلك الوزاري, في المسارح والجهاز القضائي. في هذه الصروح, لا يزال هناك ميل عنيد إلى التمسّك بالنظرية التي ترى 'الغير' على أنه أدنى. لو أنه تمت إقامة جدار في مدرسة ما لغرض حظر التواصل بين التلاميذ على أساس لون البشرة أو الانتماء في مكان آخر من العالم بعيداً عن إسرائيل, لكنّا سنحتج بصوت عال, وبحقّ. وكنا سنُقيم الدنيا ولا نُقعدها لو أن تلاميذ يهودا في لندن أو باريس حُشِروا وراء جداركهذا. إلا أن هذا هو ما حدث عندنا في دولة إسرائيل في الألفية الثالثة.

أرى أن الوعي لِمَواطن الضعف الاجتماعية هذه ينطوي على أهمية من الدرجة الأولى لاجتثاث العنصريّة. يُمكن قياس مستوى العنصريّة بطُرق أخرى, مثلاً من خلال فحص منظومة الإنكار. لقد ثارت ثائرة إسرائيل عندما أعلنت الأمم المتحدة عن الصهيونية حركة عنصرية. ووقّعت إسرائيل في العام 1966 المعاهدة الدولية لاجتثاث التمييز العنصري, لكن يبدو أننا لم نقم بواجبنا كما تقتضيه هذه المعاهدة تجاه العرب والنساء والمهاجرين من البلدان العربية والإسلامية ومن أثيوبيا وروسيا, وتجاه اللاجئين ومهاجري العمل وتجاه مجتمع المثليين والمثليات وما إلى ذلك.

ليس الداعي للعنصرية وحده مسؤول عن زرع بذور الفتنة, إذ يشاركه في المسؤولية أولئك الذين يُنكرون وجود جريمة العنصريّة. حتى ذاك الذي لا يُشارك في الجريمة العنصريّة لكنه لا ينبسّ ببنت شفة حيالها, من منطلق خوف أو لامبالاة, مسؤول عما يحدث في هذا الشأن. هؤلاء, أيضاً, قد يجدون أنفسهم غدا ضحايا العنصريّة. وقد يفقدون غدا حرياتهم ونمط حياتهم الليبرالي. هذا ما حدث منذ وقت ليس ببعيد في أوروبا المتنورة. وإذا لم نتيقّظ وننفض عنّا وباء العنصريّة فقد يحدث عندنا ما حدث في أوروبا.

أعتقد أن دور وزارة التربية والتعليم في اجتثاث العنصريّة هام جدا. لدينا مربون ذوو قيم إنسانية وفي متناول يد وزارة التربية والتعليم أدوات متنوعة للعمل بشكل مكثّف على تمرير رسالتنا وهي: كلنا ننتمي إلى عرق واحد هو عرق الإنسان. ليس هناك عرق أعلى أو أدنى, وليس هناك عرق نقيّ أو عرق غير نقيّ.

يتضمّن هذا الكتاب مقالات متنوّعة تفتح آفاق وتضطرّ المجتمع بأسره إلى مواجهة العنصريّة التي يقع في خطيئتها أناس من شتى المشارب. تريد المقالات الواردة هنا عملياً من كل واحد فينا أن يُصغي إلى صوت العقل, وأن يتعاون من أجل بناء مجتمع خال من العنصريّة. تعمل في إسرائيل جهات لها أهميتها ليل نهار من أجل مجتمع أفضل وأكثر عدلاً, من أجل مجتمع سويّ يحترم حقوق كل الذين يعيشون فيه, جهات تُؤمن بكل جوارحها أن الدماء التي تجري في عروقنا وعروق الآخرين والمختلفين عنّا هي الدماء ذاتها, وأن القلب هو ذات القلب, أيضاً.

سامي ميخائيل

رئيس جمعية حقوق المواطن في اسرائيل